تسلسل منهج التغير الاجتماعي في العالم العربي

أ. دلاسي امحمد
قسم علم الاجتماع والديمغرافيا
جامعة الاغواط

التقديم:

* لما كان الحديث عن ابن خلدون وأعماله ، وأفكاره ومجالات بحثه المتعددة المتنوعة في آن واحد أراه لزاما أن نبتدي بتقديم لمحة وجيزة عن حياته ونشأته وتأثيراتها في علمه والتي زادت من شهرته وغزارة عطائه .

اشتهر صاحب المقدمة باسم ابن خلدون نسبة إلى أحد أجداده القدماء وهو الذي دخل الأندلس ذات يوم في القرن العاشر للميلاد مع جنود اليمانية. أما اسمه الحقيقي حسب تأليفه هو نفسه كما جاء في المقدمة هو عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون الحضرمي ونظرا لاهتمام الكثيرين به جاءت عدة تسميات إعلاء بمكانته وارتفاعا في شأنه مثل قاضي القضاة ، ولي الدين ، أبو زيد العلامة المالكي ، وغيرها من الأسماء.

ابن خلدون مولده ونشأته :

ولد بتونس مسقط رأسه سنة 1332 ميلادي الموافق لسنة732هجري وكانت حياته الطويلة زاخرة بنشاط علمي ومعرفي ميزت زمانه وعززت عصره . بحيث امتاز صاحب المقدمة بحيوته النادرة وتجواله بين مدن وبلدان المغرب العربي باحثا في العلم والتنقيب الذي كان حينها متعدد الجوانب وهو ما ميز مقدمته التي كانت تشمل على ميادين شتى منها الاقتصاد ، والسياسة والتاريخ والقضاء والبلاغة ونميزها من العلوم والفنون التي محصها ومنها التي أسسها وأقرها كعلم العمران البشري .

وقد شغل مناصب كثيرة في الحكم بين حكام وملوك دول عديدة بحيث كان دخوله إلى غمار الحياة العامة وهو لم يبلغ عشرين سنة من عمره ومع ذلك كانت وظيفة التأليف والتدريس من بين المهام الأساسية والرئيسية التي تعزز طموحاته وأماله وهو ما يعكس حقا مؤلفه السر الذي كان جامعا لنشاطاته وأعماله إلى أن وافته المنية في القاهرة ذات يوم من سنة 1406م الموافق لسنة 808ه

2 ـ **المنهج العلمي والفكر الاجتماعي عند ابن خلدون :**

غني عن البيان أن نتكلم عن البوادر الأولى في فكر ابن خلدون من خلال المقدمة والذي كان فيها إقرار علم الاجتماع كعلم يدرس العمران البشري والاجتماع الإنساني نظرا لأهمية موضوع العلم من جهة وطبيعة ضرورة الارتباط بوقائع الدراسة وكيفية تناولها من جهة أخرى .

ومنذ ذلك التاريخ وحتى وإن كان سبقه قبل هذه الفكرة آخرون أمثال أفلاطون ، وأرسطو والفرابي وغيرهم من الباحثين في مجال الفكر الاجتماعي ، وطبيعة التجمع الإنساني إلا أن ابن خلدون أبرز الموضوعية العلمية في إثبات العلم والتحيز الواقعي والدقيق في تحليلها ويظهر ذلك من خلال النقاط التالية :

1/ **الاجتماع البشري ضرورة طبيعية تقوم على طبيعة الإنسان في حد ذاته :**

ويدخل في ذلك القدرات الفكرية والعقلية وحب التعاون والاشتراك في تلبية الحاجات العامة التي تضمن البقاء والاستمرار للحياة الاجتماعية .

2/ **قيام الحياة العامة والمشتركة على النظام والتنظيم:**

وهو يوضح كيفية النظام العام الذي تخضع إليه ضرورة الاجتماع الإنساني كالشرط للبقاء فالنظام هو سلطان الخضوع الذي ينظم العلاقات بين الناس ويضبط شؤونهم الخاصةوالمشتركة فيما يتعلق بالمعاش والسعي والعمل على الاكتساب .

إن هذه الرؤية تبرز مدى الجدلية القائمة في الطبيعة الإنسانية لكي تسمح لنفسها بالبقاء في إطار جماعي أو نسق منسجم للحياة الاجتماعية العامة.

الأكيد في ذلك إبراز أدلة مقنعة وحجج وبراهين ثابتة لكي تساعد على فهم الموضوع أي موضوع العلم ، وضرورة الارتباط به كمجال بحث وهو ما أثر به فعلا صاحب المقدمة فيما بعد عند المستشرقين ورواد الفكر خاصة الغربيين عندما أرادوا فهم ومعرفة والبحث في قضايا الإنسان والمجتمع وكل ما يتعلق بهما من نشاط اجتماعي متعدد الجوانب ونجد ذلك الإدلاء ففي كل العلوم والمناهج العلمية كالتاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد وعلم الاجتماع وغيرهم من العلوم ، وقد تختلف النوايا عند هؤلاء وأولئك حسب التأثر والتأثير ، أو النقل أو الاقتباس لكن المهم هو فكر سابق لأخر مهما كانت الظروف والأوضاع .

وإذا عدنا إلى طبيعة المنهج فإننا نلاحظ تسلسل الأحداث ، وبناء تناقضات وجدلية الأوضاع وهو ما أشار إليها حقا صاحب المقدمة عندما قال :<< العمران وهو التشاكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات ، لما في طباعهم من التعاون على المعاش ومن هذا المعاش ما يكون بدويا ، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال ، ومنه ما يكون حضريا ، وهو الذي في الأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن لجدرانها[1]......(المقدمة ص67).

3 ـ أشكال التغير الاجتماعي :

عند الرجوع إلى متغيرات الزمان والمكان والمجتمع فإننا نلاحظ أن هنالك حركة اجتماعية بزمان معين ومكان محدد ومجتمع خاص وبالتالي نحكم على المجتمع أو جزء منه بأنه يمتاز بحركة ديناميكية وتبقى مظهرا من مظاهر التحول والتغير التي شهدها المجتمع ومن هذا المنطلق يظل التغير كعملية اجتماعية وثقافية التي تدخل في اهتمامات الباحثين الاجتماعيين نظرا لارتباطها الوثيق بقضايا المجتمع

ويتجلى ذلك من خلال التبدل من حالة إلى أخرى في أنمـاط السلوك أو العلاقـات الاجتماعية أو النظم أو البناء الاجتماعي كما يعرفه فارليFareley مثلا .

واعتبارا من ارتباط التغير بكل أشكال وأنماط الحياة الاجتماعية فإنه يظهـر حسب طبيعة المرحلة التي يسودها وحسب طبيعة الجماعة أو المجتمع الذي يختص به ولذا يرتبط شكل التغير في طبيعته لظروف الزمان والمكان يشمل حينها التغيرات البنائية في المجتمع والتغيرات الثقافية فيه والتغيرات ذات الصلة بالأنشطة الوظيفية والسلوكية العامة(2) .

إننا من خلال التحديد السابق لمفهوم التغير وشكله يقتضي التوضـيح أكثـر لأوجه النشاطات الحيوية التي بفضلها يتحرك المجتمع ويتطور ويتقدم وينمو وهـي كلها مفاهيم تختلف الواحدة عن الأخرى ولها وظيفة اجتماعيـة خاصـة بهـا دون غيرها إلا أنها تعمل ضمن سياق ترابطي لأحوال المجتمع والطبيعة .

وقد يشمل أيضا التغير الاجتماعي البعدين الذاتي والموضوعي بمعنى أن هذه العملية تتصل بالواقع بكل مكوناته وعناصره وهي حالة موضوعية وفي نفس الأوان ترتبط بتصورات الإنسان وأذواقه ولذا تبرز أهمية المستويات الاجتماعية والثقافيـة والاقتصادية وهي كالتالي :

1/ **مستوى التنظيم والنظم الاجتماعية** : ويرتبط بالمعايير وقواعد السلوك.

2/ **مستوى المصالح** : وترتبط بفرص النشاط والمصالح الوظيفية

3/ **مستوى الفعل والسلوك** : ويتضمن التفاعل الاجتماعي والعلاقات

4/ **مستوى الفكر والإيديولوجيات** : وفيه ظهور الأفكار والعقائد وطرق المعرفة .

واستخلاصا لما سبق فإننا نقر تغيرات يومية وعادية يعيشها كل واحد منا في حياته العامة المشتركة وفي حياته الخاصة المرتبطـة بـسلوكه كتغيـرات الأدوات ووسائل الاتصال والنقل والتكنولوجيا وفنون العمارة والمجالات السكنية هـذا مـن

جهة ، ومن جهة أخرى نلتمس بل نعي بالتغيرات في العلاقات الاجتماعية وفي المكانة والأدوار والأذواق الاستهلاكية والفنية.

4ـ نظرية التغير الاجتماعي في فكر ابن خلدون:

تعكس اهتمامات الدارسين الاجتماعيين خاصة والباحثين والمفكرين بصفة عامة مدى تأثر هؤلاء بمقدمة ابن خلدون وما يزخر به الفكر الخلدوني الذي يمثل إجمال التراث العربي والإسلامي ، ولقد جاءت أبحاثه في هذا الصدد شاملة حول حياة الشعوب والقبائل والأمم في أمصار العالم العربي بل كانت المقدمة لوحدها فقط موسوعة في عدة علوم وفنون ومعارف إضافة إلى كونها فلسفة لحضارة الإنسان الاجتماعي وطبعه(3).

ولقد بدا التأثير واضحا في كثير من الاتجاهات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خاصة عند أصحاب الفكر الأوروبي في تاريخه الحديث والمعاصر وهو ما يدل على مكانة الفكر الخلدوني في البحث والدراسة ومن أمثال هؤلاء :

جومبلوفيتش مؤسس النظرية العنصرية باستناده إلى مفهوم العصبية عند ابن خلدون . ومنهم أيضا إدوارد مايير، وروزنتال وبريزيج الذي صور واعتبر أن ابن خلدون بمثابة السلف المباشر للمدرسة الاجتماعية السيكولوجية .

ويتجلى من خلال هذا التأثير المعرفي بابن خلدون تنوع التخصصات عند صاحب المقدمة والعلوم الأخرى كالفكر الاقتصادي والسياسي والتاريخي والمعرفي وهو ما وضعه حقا موضع التأثر(4) .

أما إذا عدنا إلى صلب الموضوع لهذه المداخلة فإننا نكتشف بعمق مدى الحيوية المرتبطة إلى حد كبير بدراسة هذا الموضوع وعلاقته بالواقع الاجتماعي في أبحاث وأفكار عبد الرحمان ابن خلدون هذه الأبحاث تناولت دراسة العمران البشري ويظهر في ذلك التفسير المادي والترتيب المنطقي لدراسة أسبقية الحياة البدوية على

الحياة الحضرية وفي ذلك منهج موضوعي مرتبط بالتغيير الاجتماعي لحياة الشعوب والقبائل من حالة إلى أخرى إننا نكشف تلك الصورة الواقعية لحديث ابن خلدون نفسه عن النشاط الاجتماعي في العمران البدوي الذي يسبق العمران الحضري نتيجة أسبقيته في الوجود ، ومعها تتغير بحكم الظروف الطبيعية والاجتماعية نمط المعاش ، وتتطور العلوم والفنون بكل أصنافها وتتشكل من جديد الوسائل في العمل والصيد والحروب ، وفي هذا السياق تبرز أهمية النظرية الرائدة التي جاء بها صاحب المقدمة :

5 ـ نظرية التعاقب الدوري :

وتقوم نظرية الدورة الحضارية مع بداية الحركة التاريخية في حد ذاتها ، وظهور الحضارة بعد تأسيس الدولة بكل مقوماتها ومعالمها الترفيهية والازدهارية وفي ذلك مراحل وتعاقب للحضارات إلى غاية اختفائها وظهور حضارة أخرى على أنقاضها ، إننا من خلال هذا الحديث نود أن نشير إلى تاريخية النظرية أو الاعتناء بها قبل فكرة فيكو أو ممن عاصروه .

6 ـ منهج التغيير الاجتماعي عند ابن خلدون :

إن الموضوعية في التحليل والدراسة وعمق النظر في قضايا وأحوال الدنيا عند ابن خلدون جعلت منه بناء نظريته ورؤيته في واقع غير قابل للجدل ولا التناقض . فلقد اختار صاحب المقدمة دراسة المجتمع الإنساني دراسة اعتمدت على تفسير عملية التغير في بعدها التاريخي متخذ في ذلك المجالين الزماني والمكاني وما بينهما من تأثيرات على نشاط الإنسان والمجتمع ، ولذلك نجده قد مهد لعملية التاريخ الاجتماعي بما كان يحدث فيها من تغيرات اجتماعية كبرى كتلك المتعلقة بتطور المعاش ، وأسباب الترف وتغير بنية القبائل وهنا تكمن الرؤية التطورية التي تكلم عليها المحدثون وممن اهتموا بعده بأحوال المجتمع والطبيعة أصحاب الاتجاه التطوري أمثال هربرت سبنسر وغيره .

يقول ابن خلدون بكل وضوح عند تناوله عملية التغير الاجتماعي وعلاقته بالنشاط الإنساني : .... « وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول....» [5].

إن ارتباط البشر بأحوال معاشهم عاملا حاسما في التحرك والتبديل ولذا يعتبر ابن خلدون نفسه أن العامل الاقتصادي له دور في تطور وتغير المجتمعات إذ يرى أنه بفضل تطور الإنتاج وتقسيم العمل وتحديد الأدوار يتقدم الناس من حالة قد تكون بدائية إلى حالة أخرى أكثر تنظيما وتطورا من حيث الوسائل والعيش والعمران [6].

7ـ تسلسل التغيير الحضاري والاجتماعي:

إذا كان ابن خلدون قد اعتمد في تحليله لعملية التغيير الاجتماعي على مبدأ العيش وما يرتبط به من وسائل وأدوار وأنماط اجتماعية ومدى تبدلها من حالة إلى أخرى ومن ظروف اجتماعية وطبيعية إلى أخرى فإن ذلك سيسوقنا أيضا إلى فهم طبيعة حركة المجتمع والذي يقسمه إلى قسمين أساسين وهما :

1/ المجتمع البدوي

2/ المجتمع الحضري

يقوم الأول على حياة ونشاط بدائي تقليدي خاص به نلتمسه في نشاط الرعي والعمل في الزراعة بوسائلها المألوفة البسيطة والمبنية على التعاون الجماعي بين مختلف الأجناس والأعمار. وتتحلى بنوع خاص من التضامن والتكاتف الاجتماعي وهي صورة مألوفة للعلاقات الاجتماعية بين الناس تميز طبيعتها بالعلاقات التقليدية الآلية لكنها قوية في تماسكها وحيوية في تفاعلها مما تؤدي إلى النزعة القومية والتفوق الطبيعي حسب ابن خلدون .

أما الثاني يتميز عن الأول بدرجة تطوره وتقدمه في الصناعة والتجارة وفنون العمارة ودرجة المعرفة وكأنه يمثل نموذج الشكل النهائي للمجتمع البشري لأن سابقه كان مبنيا على نمط الحياة البدوية البدائية.

وبالرجوع إلى التصنيف الاجتماعي لثنائية التغيير بين مجتمعات البداوة والحضر والذي يعتبر فيه صاحب المقدمة بمثابة الضرورة الملحة المساعدة على قيام الدولة نظرا لارتباطها بقوة العصبية وفي ذلك تغيرات محددة بمراحل هي أيضا مميزة عن المراحل التي سبقتها . ومنطقي جدا إذا وضعنا في الحسبان أن التغير يحدث نقلة نوعية ومميزة هي الأخرى ويتجلى ذلك في اختلاط الشعوب والجماعات الاجتماعية وتنوعها وتعدد الثقافات والأعراف والتقاليد وتداولها بين أجيال المجتمع الواحد وبالتالي فإن الذي يجعلنا نقيم تصورات ونحدث تكهنات بل مع يفرزه الواقع فعلا .وهو أن التغير الاجتماعي قد يكون إما بطيئا أو سريعا حسب درجة فطه وإما قد يكون جزئيا أو شاملا حسب شدة حدوثه.

وبالرجوع إلى التسلسل الذي يطله علينا التاريخ في مجال التغيير الحضاري والاجتماعي فإننا نتصادف مع أقدم وأعرق المراكز الحضرية التي عرفها الشرق الأوسط منذ عهد بعيد وإلى يومنا هذا باعتبار أننا مازلنا نلاحظ كوكبة من المدن العريقة في التاريخ كتلك التي يتغنى بها وادي النيل بمصر مرورا بالسودان إلى منطقة ما بين النهرين في العراق ومدن أخرى نجدها على ضفاف نهر بردا بالشام وأخرى على قمم جبال الأردن وغيرها من الدول التي تشكل ذخرا في مجال العمران والحضارة . ويظل الارتباط بين التطور الحضري والنمو الاجتماعي المتزايد من ابرز سمات الحياة الحضرية في وقتنا الحالي مرورا بعدة مراحل قد نجد فيها تلك البصمات التي تركتها الحضارة العربية الإسلامية منذ قيامها في بلاد الشام والأندلس والعراق ومصر وإيران والتي بقيت دهرا من الزمن تلعب الدور الأساسي في الحياة السياسية والثقافية والدينية والاقتصادية حتى أصبحت اليوم المحور الرئيسي الذي

يتنافى مع قيم وأفكار العالم الغربي، ولربما غزو العراق منذ سنة 2003 وتهديد إيران اليوم واحتلال فلسطين منذ الحرب العالمية الثانية والعديد من المظاهر الرامية إلى تضارب الأهداف الإستراتيجية بين الشعوب والأمم. ويبدو أن هنالك قدرا ملحوظا من الاتفاق حول تجانس الارتباط بين التغيرات الاجتماعية التي تشهدها المدن العربية والإسلامية وفي ذلك تكمن الخصائص الثقافية بكل مقوماتها والتي هي خاصة بكل مجتمع .

ويسوقنا الحديث هنا أيضا عن الجزائر كدولة إفريقية ومن دول حوض البحر الأبيض المتوسط إذ تأثرت كثيرا بتعاقب الحضارات عليها منذ عهد الفتوحات الإسلامية ومرورا بالحملات الصليبية والغزوات الاستعمارية في شكلها القديم والحديث. إذ تبرز آثار المراحل واضحة على مدن الجزائر وسكانها . وأعتقد أن صاحب المقدمة نفسه التمس هذه الآثار على المدن التي زارها وكتلك التي استقر بها كقلعة بن سلامة بفرندة من سنة 1375م إلى 1378م وكان لها الفضل الكبير في أثار ومآثر ابن خلدون .

وما دمنا نتكلم عن قلعة ابن سلامة فكيف كانت حينها لما آوت ابن خلدون ومظهرها الخارجي اليوم مع بقيت الأماكن المجاورة لها .

فلقد طرأت على المجتمع الجزائري عدة تغيرات خاصة منذ السبعينيات وخلال الثمانينيات وبعدها في التسعينات جعلتنا نحكم على أن المجتمع الجزائري عرف مراحل وحالات تختلف الواحدة عن الثانية.

8ـ الخاتمة:

ولربما تكاد تكون بعض جوانب الحياة الاجتماعية تمتاز بتغير ثابت أو بطيء نسبيا كنظام القيم والمعاني والمعايير في حين تكون الجوانب المادية منها تتغير بشكل ملموس وسريع وحساس كالذي يحدث في التفاوت الثقافي والمادي وسماه

حينها أوجبرن :<< بالهوة الثقافية >> . ولكن الأكيد هو أن التغير يحدث كحتمية مستمرة ومتباينة تمس جل المستويات كالمستوى الشخصي الذي يتغير فيه الشخص في طوله وذكائه، ووزنه والمستوى الجماعي كذاك الذي يمس الأشكال العائلية وبقي انقسام العائلة إلى نمطين منها أسرة الإنجاب وأسرة التوجيه إضافة إلى مستوى النظم ومستوى التغير العالمي وهو ما تميزه مظاهر العولمة والمجتمعات التي تتميز بالحداثة.

الهوامش والمراجع :

1/ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1982 - ص 67.

2/ ابراهيم عثمان : مقدمة في علم الاجتماع ، دار الشروق للنشر والتوزيع – الأردن 2004 – ص331.

3/ بن إبراهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون ، مواقف وأفكار مشتركة – دار مدني - الجزائر 2002 –ص28.

4/ عبد الغني مغربي : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون ، ترجمة محمد الشريف بن دالي، المؤسسة الوطنية للكتاب – O.P.U - الجزائر 1988 – ص. ص 36/35.

5/ عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة – ص 71.

6/ محمد محمد أمزيان : منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ، سلسلة الرسائل الجامعية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الولايات المتحدة الأمريكية – الطبعة الأولى 1991 – ص430.